



**مقططف:** عندما نلقي نظرة فاحصة على عوامل هزائمنا التاريخية الكبرى، نجد أن ضعف الملك والخلل في النظام السياسي، والذي صرفت له طاقات الدولة لثبتت أركانه بعد أن فقد شرعنته وتحول لملك عضود حرم الأمة حقها في اختياره وكان من أهم أسباب الهزيمة. الغالب على البشر أنهم لا يعتزون من تجاربهم الذاتية التي لا تخلو من التكلفة والمغفرم، فووخدم العقلاء وأولوا الألباب من يتعظون من تجارب الآخرين قال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)

وقد قالوا من وعي التاريخ فقد أضاف لعمره أعماراً، ولخبرته خبرات الآخرين، وغاية علم التاريخ حتى يكون علماً ومحل اعتبار، هو أن ندرك التاريخ كما كان، لا كما يجب أن يكون فتنزع إلى التقديس والمثالية، ولا كما نحب أن يكون فتنزع إلى الهوى ونخرج عن الموضوعية، وبذلك يصبح التاريخ لنا حافزاً لا قيداً.

من هنا لا بد من وقفة متأنية مع هزائمنا العسكرية الكبرى التي أعقبها تحول في خطنا البياني الحضاري نحو الانحدار، وذلك بال الوقوف على مقدمات هذا الانكسار قبل نتحسر على النتيجة المرة، فلا شك ولا ريب أن الهزائم العسكرية هي نتائج حتمية لمقدمات تسبقها، ولا شك أن للانتصارات الكبرى أيضاً في تاريخنا مقدماتها الضرورية.

ومن المعلوم بالضرورة أن الهزائم العسكرية تسبقها هزائم وانكسارات في الأخلاق والمجتمع والسياسة والاقتصاد وكل

شُؤون الحياة، وكذلك هي الانتصارات العسكرية تسبقها انتصارات في كل شُؤون الحياة.

فقد انهزم العرب أمام اليهود من سنة 1948 إلى سنة 1967 في حروب متتابعة، والسبب واضح فروح الله لا تغلب روح الجد، وفائد الإيمان لا يقاوم من يتحركون بيقين راسخ ولو كان فاسداً، فالواقع يقول إن اليهود كسبوا معاركهم ضدنا منذ أفلح الغزو الثقافي في زحرتنا عن ديننا، وتهوين قيمه ومثله وأحكامه أمام أعيننا، ومنذ أفلح في خلق شباب يقاد من غرائزه الجنسية، ويغرس بعبادة الحياة الدنيا وينسى ربه وآخريه.

يقول التاريخ إن شبيها لهذه المأساة وقع من تسع قرون، فقد انهزم العرب أمام الحملة الأولى للصلبيين دون سبب معقول، لقد هبط الصليبيون من أوروبا إلى الشرق الأوسط وهم يجررون أقدامهم جراً، وبلغت بهم الماجاعة إلى حد أنهم أكلوا الجيف، ولم تكن ظروفهم تمكنهم من كسب أي معركة، ومع ذلك فقد هزموا العرب موفوري القوة والعدة والصحة والشعب وذبحوا سبعين ألفاً منهم في القدس، لأن العرب كانوا في حالة من الفرقة والبطر تحريمهم من رعاية الله، وتبعدهم النصر القريب، فعندما نلقي نظرة فاحصة على عوامل هزائمنا التاريخية الكبرى نجد أن ضعف الملك والخليل في النظام السياسي، والذي صرفت له طاقات الدولة لتنبيت أركانه بعد أن فقد شرعنته وتحول لملك عضود حرم الأمة حقها في اختياره وكان من أهم أسباب الهزيمة، فعلى سبيل المثال لم يشفع خروج (تشرشل وديغول) منتصرين متكبرين في الحرب العالمية الثانية لهم أمام شعوبهم التي كرهت كباراً لهم، فكان سبباً لسقوطهما في الانتخابا.

أما في بلادنا، وفي نفس الوقت كان الناس يساقون أذلاء ليهتفوا باسم القائد الذي جر ذيول الهزيمة والذل على أمته وأغرق بلاده باليارات.

ولعل تفرق الأمة إلى دويلات متناحرة، ولعن كل دولة لأختها وتمني البوار لخصومها وموالاتها مع الفرنجة على دولة مسلمة أخرى كما حدث في الأندلس، كانت سبباً في جعلها لقمة سهلة أمام الفرنجة ومسبباً في سقوط حكم المسلمين ودولاتهم التي كانت تربو على العشرين دولة.

كما كان للصراعات المنهجية في التاريخ دورها أيضاً، وخصوصاً تلك التي عصفت بالمدارس الفقهية عند أتباع المذاهب والمشارب وانتشار الجدل وعلم الكلام حتى بين العامّ ما حمل حجة الإسلام الغزالي على أن يكتب كتابه "إلحاد العامّ عن علم الكلام" متسائلاً فيه هل سمع أحد أن الصحابة رضي الله عنهم أثاروا مسألة الحمارية في الميراث أو مسألة المحيرة في الحيض وهو محاصرون في المدينة يوم الخندق؟

ومن أسباب الهزائم أيضاً حب الدنيا وكراهية الموت والتغافل الناس على الدنيا والترف، ألم ندخل الأندلس عندما كان شعار الفاتحين (لا إله إلا الله والله أكبر) وخرجنا نجر أذى الخيبة لما صرنا نغني:

دوزن العود وهات القدح.. راقت الخمر والورد صحي

وغلب علينا حب الدنيا وكراهية الموت فقد الجيل صفات الفاتحين الأوائل من الجد والرجلة. وهنا يأتي السؤال الخطير هل أحوالنا العامة مشابهة لأحوالنا قبل حطين وعين جالوت وملاذكرو ونهاؤن؟

أم أنها مشابهة لأحوالنا قبل سقوط الأندلس وسقوط عاصمة العباسيين واجتياح الاستعمار الحديث لبلادنا؟  
الجواب له ما بعده، فلنفكر فإن التاريخ لا يرحم وسنن الله لا تحابي حتى الأنبياء.

قال تعالى (فَهُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ فَلَمْ تَجِدَ لِسُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَمْ تَجِدَ لِسُنَّةَ اللَّهِ تَحْوِيلًا) (فاطر 43).

العهد

المصادر: